الأستاذ الدكتور / محمود السيد رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

الزملاء الكرام أعضاء المجمع

السادة الحضور

أسعد الله أوقاتكم، وأهلاً وسهلاً بكم في مجمع اللغة العربية بدمشق، أقدمِ المجامع اللغوية العربية قاطبة، ورمزِ هويتنا العربية التي التوت بها الخطوب، وتكاثرت عليها المحن، فشوَّهت وجهها السمحَ الجميل، وكدّرت صفوه ونقاءه،.

لقد كانت السنوات الماضية حالكة كقطع الليل البهيم، تجافى فيها الأحباب، وتناكر الأصدقاء، وتحلّل المجتمع إلى عوامله الأوليّة كالقبلية والجهوية والطائفية والمذهبيّة وغيرها من البنى الأولية التي تسبق نشوء الدولة الوطنيّة، فاهتزَّ اليقين الذي نذرنا أعمارنا له وتصدّع، وغامت الرؤية واضطربت، وجلّلت الناسَ حيرة سابغة، وغشيتهم غاشيات القلق والخوف والإحباط، وصارت "الهويّة" التي كانت تنزل من النفوس منزلة البدهيّات موضوعاً محتاجاً إلى الفحص والمراجعة والتدقيق والنقد، وفقدت مفاهيم جليلة قدسيّتها وهيبتها، وحاق بالناس حزنٌ ضرير، فهل تستطيع دمشق استرداد هُويّتها من يد البلبلة والضّياع؟

ما عاد يكفي الصبر، ولا عاد يجدي الدعاء بالسلامة:

ما عاد يُجدي القول يا شامُ اسلمي إن كان يجدي فاسلمي ثم اسلمي

ثمّة فرق جوهري بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية، فالظواهر الطبيعية كشروق الشمس وغروبها، وتعاقب الفصول، وتعاقب الليل والنهار وأشباهها تتم وتتغير وفق نواميسها الطبيعية دون تدخّل الإنسان، أما الظواهر الاجتماعيّة كالتخلّف والتبعيّة والجهل والفقر والفساد وأشباهها فإنها لا يمكن أن تتغيّر ولو تحققت الشروط الموضوعيّة للتغيير إلّا بتدخّل الإنسان، ومقاومته للقوى المناهضة للتغيير حفاظاً على مصالحها، وصيانة لها.

ولذا يجب أن نعترف بأخطائنا بدلاً من الاستنجاد بأخطاء الماضي، ويجب أن نعترف أننا متخلّفون، والتّخلّف حالة حضاريّة شاملة تغشى وجوه الحياة جميعَها، واللغة العربية أحد هذه الوجوه.

هذه اللغة التي هجرها أهلها أو كادوا ناسين أو متناسين أن التفريط بها هو تفريط جائر بأهم عناصر الهويّة ورموزها.

وإذا كان التصدّي للتخلّف هو مسؤولية القيادة السياسية أولاً، وهو مسؤوليتنا ثانياً، فإن التصدّي لتخلّف اللغة العربية هو المسؤولية الأولى لهذا المجمع، وعلى مدى جدارته بتحمّل هذه المسؤولية والنهوض بها تتأسس قيمته وأهميته.

وهو مسؤولية وزارات التعليم العالي والتربية والثقافة والإعلام والأوقاف ثانياً.

وانطلاقاً من هذه الرؤية الواضحة انتخب المجمع بالأمس القريب مجموعة من الأساتذة المرموقين لينضمّوا إلى أعضائه العاملين، اختارهم وهو مفعم بالأمل بقدرتهم على العطاء، وبإخلاصهم في العمل، وبغيرتهم على ثقافة الأمّة ولغتها.

اختارهم ولسان حاله قول أبي تمّام:

لأمرٍ عليهم أن تتمَّ صدوره وليس عليهم أن تتمّ عواقبه

أيّها الحفل الكريم:

إن اللغة القديمة لا تصلح إلّا للتعبير عن الأفكار القديمة والعالم القديم.

أما الأفكار المعاصرة أو العالم الحديث فيحتاج إلى لغة معاصرة مفتوحة على روح العصر ومنجزاته قاطبة.

يجب أن ندرك أنّ لكل مرحلة تاريخيّة لغتها التي تعبّر بها عن ذاتها، وناسها ورؤيتهم للوجود ومعانيه الكبرى كالحياة والموت والحب، وعن علاقة هذا الوجود بما يتجاوزه ويتعالى عليه، وعن علاقة المطلق بالنسبي، أو الكلّي بالجزئي، والمعقول بالمحسوس بتعبير أفلاطون وأرسطو.

لقد انتقل العرب منذ عصر النهضة إلى مرحلة تاريخيّة جديدة لم يكونوا مستعدّين أو مهيّئين لها، ولم تكن لغتهم مهيّأة للتعبير عنها، ولذا ظهرت الفجوة الحضارية الضخمة بين مجتمع متخلّف وعالم متقدّم يعيش فيه، ويصبو للّحاق به، واستلزم هذا الانتقال إعادة النظر في الأداة التعبيرية ذاتها.

ولذلك ظهرت حركات التجديد اللغوي في المجتمع العربي.

وقد يكون مبالغة غير مقبولة أن نقول: إن المجتمع العربي دخل عصر الحداثة، ونفض يديه من الماضي كأنه ينفضهما من تراب الباطل.

فالحقيقة أنّنا –" وإن كنّا قد أخذنا ببعض أسباب التكنولوجيا– ما نزال نعيش في علاقاتنا الاجتماعية في عصر ما قبل التكنولوجيا بكثير" بعبارة الأستاذ أنطون مقدسي رحمه الله.

لنقل بعبارة أخرى: إننا نعيش مرحلة انتقالية، ومن سمات المراحل الانتقالية في التاريخ تعايش أنماط مختلفة في التفكير والذوق والسلوك، إنها مرحلة قلقة يتصدّع فيها اليقين القديم دون أن ينهار، وتطلّ فيها بشائر يقين جديد لم يكتمل، ويغدو كل شيء قابلاً للمراجعة والتدقيق والنقد.

أذكر أنني قرأت – منذ سنوات بعيدة خلت –كرّاساً صغيراً يضم إجابات "ستالين" عن أسئلة تتعلّق باللغة، وكان بعضهم قد أثار ضرورة استبدال لغة بروليتارية جديدة باللغة الرّوسية البرجوازية، فردَّ عليهم أن اللغة الروسية ستغتني بسيلٍ من المفردات التي تعبّر عن المرحلة الاشتراكية، ولكننا لن نفرّط بلغة "بوشكين"، وكان معجباً به أيّما إعجاب، وقال: إن اللغة ليست بنية تحتيّة، ولا بنية فوقيّة، وإنّ لها قانونها الخاص الذي تتطور على وفقه.

ونحن في مجمع اللغة العربية لا نريد أن نستبدل باللغة العربيّة لغة أخرى، ولكننا نريد لها أن تحتفظ بقواعدها التركيبية ونظامها الصوتي، وأن تنفتح على آفاق العصر وروحه لتستطيع التعبير عن هذا العالم الجديد بكلّ ما فيه من تفجّر معرفي، ومن تكنولوجيا.

إن اللغة قادرة على الصمود أمام عواصف التغيير والتبدّل، ولذلك اختارت كل جماعة بشرية لغتها الخاصة للتعبير بها عن ذاتها وحقيقتها، وعن رؤيتها للوجود.

إن الكلمات لا تتبدّل في دلالاتها الأصلية، ولكنها تتبدّل في الدلالات التي تُشتقّ منها، أو تُضاف إليها.

وقد تضمُّ إليها كلمات جديدة بعد إخضاعها لنظامها الصوتي، ونظامها التركيبي.

وقد حدث ذلك عبر المراحل التاريخيّة التي مرّت بها اللغة العربية منذ انتقل العرب من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضّر.

ويمكن أن تتغيّر طرائق التعبير دون مساس ببنية اللغة الأساس، أي يمكن أن تتغيّر الأقوال أوالكلام بمصطلح علم اللغة الحديث دون أن تتغيّر اللغة بوصفها نظاماً من الرموز المتعارفة. وحسبنا أن نذكر التطور اللغوي الضخم الذي أحدثه الإبداع المعاصر، وأحدثته الصحافة.

يقول الأستاذ أنطون مقدسي: "وأظن أن النصوص التي تُكتب اليوم عصيّة على فهم أي قارئ قديم، لأن الذي تبدّل ليس الكلمات أو الإعراب، بل وبالدرجة الأولى المنظور الحضاري، وسوف تطرأ على لغتنا تبدّلات كثيرة في السنوات القليلة المقبلة لأننا نخطو خطى سريعة ومتعثّرة جداً في تبنّي الحداثة".

أيها الحفل الكريم:

انطلاقاً من هذه الرؤية الشمولية الواضحة التي أشرت إلى معالمها الكبرى دون الدخول في التفاصيل كان اختيار المجمع لأعضائه الجدد وأوّلهم الأستاذ الجامعيّ المرموق الدكتور محمد شفيق البيطار، فأهلاً وسهلاً بك عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق.

اخترناك ولسان حالنا قول الحُطيئة:

لم يؤثروك بها إذ قدّموك لها لكن لأنفسهم كانت بها الأُثرُ

لم نختر متخصّصاً في اللغة العربية فحسب، بل اخترنا عاشقاً لها، وغيوراً عليها لا يصبر على صدودها أو هجرانها، ولا تُخطئ العين فيما حبّر من حديثها آياتِ عشقه لها، وأمارات فتنته بها:

وإذا خامر الهوى قلب صبّ فعليه لكل عين دليل

ينتمي الدكتور محمد شفيق بن خالد البيطار إلى آل البيطار في حيّ "الشاغور" الحيّ الدمشقيّ العريق.

وُلِد في "رأس المعرّة" بريف دمشق في الشهر الأول من عام 1965م، وتلقّى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في محافظة دمشق، ثم التحق بقسم اللغة العربية وآدابها في جامعة دمشق، وتخرّج فيه عام 1987م، بتقدير "جيد جداً"، وكان ترتيبه الأول على دفعته، ثم التحق بالدراسات العليا عام 1988، فحصل على دبلوم الدراسات الأدبية بتقدير "جيد". وفي العام نفسه (1988م) عُيِن معيداً في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دمشق، فأُوفد إيفاداً داخلياً إلى جامعة دمشق، فحاز درجة الماجستير في الآداب عام 1992م بمرتبة ممتاز، ثم حاز درجة الدكتوراه في الأدب الجاهلي عام 1995م بمرتبة الشرف، فالتحق بقسم اللغة العربية مدرّساً، ورقّيَ وفقاً للقوانين الجامعية إلى مرتبة أستاذ مساعد ثم إلى مرتبة أستاذ.

يرجع بي الزمان القهقرى إلى أوائل التسعينيّات من القرن المنصرم حين عرفت محمد شفيق البيطار عن قرب في مناقشة رسالة الماجستير، ثم تصرّفت بي الأسباب إلى مطالع هذا القرن، حين جمعتنا الزّمالة في قسم اللغة العربية بدمشق، ولم تلبث أن انعقدت بيننا أواصر شتّى اختلط فيها الذّاتيّ بالموضوعيّ، وشؤون العلم بشؤون الحياة أو قل: جمعتنا أسباب شتى، ودنيا "كظلّ الكرم كنّا نخوضها" بتعبير الشاعر الأموي الكبير "ذي الرّمّة"، فتوثّقت بيننا عرى الصداقة والإخاء.

ولذا أستطيع أن أتحدث عنه بثقة واطمئنان دون أن يخامرني رسيس من الشك فيما أقول، ودون أن تنحرف بي إلى معادل الطريق عن قصده عين الرّضا، أو وساوس النفس وغوايات الهوى.

وأحبُّ في هذا الموقف أن أَجري على اجتزاء الكلام وطيّه، فأضمَّ تفاريق القول بعضها إلى بعض، وأنصرف عن التفاصيل إلى الاعتدال في القول والإشارة الدّالة، وحسبي من القلادة ما يحيط بالعنق.

فإذا عاسرتني اللغة، أو عاصاني القول ــ وأُعيذ نفسي منهما – ردّدت قول "أبي العلاء":

وقد يخطئ الرأي الفتى وهو حازم كما اختلَّ في وزن القريض عَبيد

ما أجمل أن يلوذ المرء بجوهرة الصمت! ولكنّ أنّى السّبيل إلى ذلك؟ وليس للصمت ألسنة يُحدِّث بها نيابة عني، وليس له جناحان يخفق بهما فوق العقول، فينشر شذى الحديث الذي أودُّ أن أتلوه على مسامعكم.

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

لقد نفض الدكتور شفيق من على منكبيه غبار سبعة وخمسين عاماً قضاها في مدارسة الكتب، وزانها بالعطاء وحبّ الناس، وحسبك أن تراقبه وهو مع طلابه الذين يشرف عليهم، فتراه يحلّ لهم ما اعتاص عليهم، ويقوّم ما أناد من آرائهم وأقوالهم، وينشر فوقهم جناح الثقة والمحبة، فيغمرهم ببساطته الآسرة، وتواضعه الجمّ الذي يفيض عذوبة ومحبّة، وحسبك أن ترى كل ذلك منه لتدرك أن الله قد وهبه الصبر والعلم والمحبّة.

فإذا آنست منه ما يرضيك، وآنس منك ما يرضيه كشف لك عن أسرار قلبه وعقله، فرأيت فيه الصديق الودود، والإنسان المخلص، والمرء الغيور على ما يؤمن به من القيم إيماناً غير مدخول، فكنت أمام إنسان وهبه الله من الصفات الأخلاقية ما يثير الغيرة في النفوس.

فإذا أنكرت منه شيئاً أو أشياء قلت لك: كفى المرء نبلاً أن تُعَدّ معايبه.

وهو باحث جادٌّ مدقق، ومحقّق حصيفٌ رزقه الله الصبر على مكاره البحث ومضايقه، وراضَ نفسه في حزون التراث حتى ذلّلها ووطّأ أكنافها، فجرى فيها طلقاً تسعفه معرفة واسعة بعلوم الآلة كالنحو والصرف والعروض، ومعرفة واسعة بكثير من حقول التراث وأنساقه المعرفية، ورغبة جارفة في الاستزادة من المعرفة، وإيمان جليل بخدمة اللغة العربية وتراثها الخالد، وحرصٌ مفعم بالأمل على استمرار مسيرة العرب الحضاريّة دون التنكّر للماضي أو الانقطاع عنه.

لقد جمع نفسه وساقها في سبيل قضية واحدة هي قضية "التراث"، وراح يصطفي تراثه الخاص من هذا التراث الضخم، شأنه في ذلك شأن الباحثين في التراث عامة.

فتخيّر التراث الأدبي بما يتخلّله من معارف ذات طعوم شتّى نظراً لتداخل شُعَبِ الحضارة العربيِّة.

وإنه ليعزّ على الباحث في الحضارة العربيّة أن يميّز كل حقل من حقولها المعرفية تمييزاً دقيقاً عن سواه، فهي حضارة يختلط فيها الأدبي بالتاريخي والدّيني، والجدل بالتسليم، وعلوم اللغة بالفقه والتفسير والتأويل. والحديث قياس.

لقد مرّت علاقة العرب بالتراث في ثلاث مراحل هي: مرحلة تحقيق التراث ونشره على نحو ما هو شائع معروف، فالمكتبات في مشارق الأرض العربية ومغاربها تكتظّ بهذه الكتب المحقّقة تحقيقاً علمياً رصيناً.

ومرحلة تقريب هذا التراث من أبنائه، وأبرز مثال لهذه المرحلة كتاب حديث الأربعاء للدكتور طه حسين.

ومرحلة نقد هذا التراث، وإعادة النظر فيه، ومراجعته بحثاً عن العناصر الحيّة فيه المفتوحة على عصرنا الحاضر، أي عن معاصرة التراث لسياقنا التاريخي الاجتماعي المعاصر.

وفي هذه المرحلة تحديداً ظهر مفهوم "التراث الخاص" داخل التراث العام، وظهرت كتب يعزّ حصرها كاليمين واليسار في الإسلام، والنزعات الماديّة في الفلسفة الإسلامية ومن التراث إلى الثورة، ومن العقيدة إلى الثورة، و....

وعزّزت نظرية "التلقّي" هذا الاتجاه، فاستفاض الحديث عن مفهوم "النص" وعن القراءة والتفسير والتأويل، واستفاض الباحثون في إصدار قراءاتهم الخاصّة للتراث، واستطار الجدل بينهم على نحو ما نعرف مثلاً من ردّ د/ طيب تيزيني على محمد عابد الجابري في كتابه " من الاستشراق الغربي إلى الاستغراب المغربي".

واقتصرت جهود الدكتور شفيق على المرحلتين الأوليين من هذه المراحل مع اقتراب متردّد خجول من المرحلة الثالثة: مرحلة المراجعة والنقد.

وليس في ذلك ما ينقص من قيمة هذه الجهود، أو يضيرها. وقد كنت، ولم أزل، أرى أن مرحلة النقد لا يمكن أن تكون رشيدة إذا لم تعتمد على المرحلة الأولى، فهي المرحلة المؤسّسة للمرحلتين التاليتين لها.

ولست أعرف كيف يمكن أن نقرأ التراث قراءة صحيحة رشيدة إذا لم تكن نصوص هذا التراث محقّقة تحقيقاً علميّاً رصيناً؟

وقد نذر الدكتور شفيق لهذه المرحلة التأسيسية جهوداً جديرة بالإعجاب والتقدير. ويكفي أن نلقي نظرة عجلى على هذه الجهود، وعلى ما يتّصل بالكتب المحققة اتصالاً وثيقاً لنظفر بالجواب، فمن هذه الجهود تحقيق ما يلي:

ديوان حميد بن ثور الهلالي، وديوان كلب بن وبرة في الجاهليّة والإسلام (في ثلاثة أجزاء)، وديوان زهير بن جناب الكلبي، وديوان أبي بكر الصدّيق، وديوان الإمام أبي بكر الصدّيق وجمهرة خطبه ووصاياه ورسائله، واختيارات ابن مسافر من شروح أشعار العرب، ومن أبحاثه المتّصلة بالتحقيق: ابن حُمام: الشاعر الذي بكى الدّيار قبل امرئ القيس، وثلاثة أبحاث حول مخالفة القياس اللغوي، والقياس النحوي، والقياس العروضي في شعر الأعشى، وبحث عروة بن أذينة دراسة في حياته وشعره، ومن مراجعاته العلمية: مراجعة الحماسة الشجرية لابن الشجري، ومراجعة طوق الحمامة لابن حزم، ومراجعة نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة، ومراجعة ديوان الفجر الأول لخليل شيبوب، ومراجعة دواوين كل من: خليل مردم بك، وعمر النص، ومحمد الفراتي، وكتابة مقدّمة لكل منها.

فإذا ضممنا إلى ذلك كله أبحاثه الأخرى كـ: وحدة القصيدة الجاهلية في حديث الأربعاء، وصورة الطبيعة في شعر الشّابي، و أحاديث الشعر لعبد الغني النابلسي، وكتابة عدد من المواد في الموسوعة العربية، وسواها. تجمع لدينا محصول علميّ غزير.

ولا يفوتني أن اذكر أنّه قد أشرف على ما يقرب من عشرين رسالة علميّة أُعدّت لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه، وأنه شارك في الحكم على عدد كبير من الرسائل، وشارك في ندوات علميّة متعددة، وأشرف على عدد من المؤتمرات العلميّة حين كان أمين المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.

وعلى الرغم من الجفوة بين الدكتور شفيق والأعمال الإدارية — وهي جفوة يعرفها المقرّبون منه –، فقد كان أمين المجلس الأعلى للفنون والآداب، وقدّم استقالته منه.

وكان رئيساً قسم اللغة العربية وآدابها مرّتين، ورئيساً لتحرير مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الاجتماعية مرّتين. وهو عضو في هيئة تحرير مجلّة التراث العربي، وعضو في هيئة تحرير مجلّة المخطوط العربي.

لقد غلب طابع البحث والتحقيق على شخصية الدكتور شفيق، فكاد يغيّب جانباً من هذه الشخصية قلّما نلتفت إليه، هو الجانب الإبداعي ، لقد رزقه الله موهبة أدبية، فكتب مسرحية مستمدة من التراث عنوانها: لبن الناقة، وكتب ما يزيد على خمسين أغنية لبرنامج "بيتنا العربي"، وكتب مثلها لبرنامج الأطفال التابع لمؤسّسة الإنتاج البرامجي المشترك لدول مجلس التعاون الخليجي، وكتب نشيد الجامعة السورية الدولية، وله ديوان شعر منضّد لم يُطبع بعد، عنوانه: أطلال روح، وديوان شعر للأطفال، وله أعمال إبداعية أخرى.

هذا هو الدكتور محمد شفيق البيطار، فإذا أخذت نفسك بالإنصاف، وأردت التحدّث عنه لم تجد فرصة لجمجمة الكلام. فكأن أبا فراس عناه بقوله:

وزلست بتارك فتيات قومي إذا حدّثن جمجمن الكلام

فهل أُسرفُ على الحقّ بعد هذا كله إذا قلت: إننا أمام شخصيّة علمية متميّزة تستحق بجدارة أن تكون عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية؟ فأهلاً بك أخاً وصديقاً عزيزاً وعضواً عاملاً في مجمعنا العريق، وشكراً لحضوركم الجميل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.